سلسلة الثقافة الاسلامية

(١٠٧)

الموت الأخضر

كيف تعامل أنصار الحسين عليه السلام
مع الموت

القسم الأول

محمّد مهدي الآصفي



مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

ﮪﮫ

اسم الكتاب: .... الموت الأخضر

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الجمعة:٨



كيف يواجه الناس الموت

معجزة الامام الحسين عليه السلام في عاشوراء انه صنع من (الموت) (الحياة).

وعجيب أمر الموت والحياة فأن الانسان اذا استهان بالحياة الزائلة رزقه الله الحياة الباقية (عنده)، واذا تشبث بالحياة الفانية حرم الحياة الباقية عند الله.

وقد استهان الحسين عليه السلام والفتيه الذين صحبوه الى كربلاء من أهل بيته وأصحابه بالحياة الدنيا، فجدد الله تعالى حياة هذا الدين على ايديهم، ورزقهم الحياة الباقية عنده، وتلك مِنَّة يمنَّ الله تعالى على من يشاء من عباده.

فما دور الموت في حياة الافراد والامم؟ هذا الموت الذي يبدله الله تعالى الى (الحياة)؟

وكيف إنقلب الموت الى حياة يوم عاشوراء.

هذا ما نحاول ان شاء الله أن نتحدث عنه في هذه الدارسة.

كيف يواجه الناس الموت؟

الموت حق وحتم، ولا سبيل لأحد الى للفرار من الموت ولا سبيل للتشكيك في هذه الحقيقة. والناس يواجهون الموت بثلاث مناهج مختلفة.

من الناس من يواجه الموت بالجزع والخوف،

ومن الناس من يواجه الموت بالصبر والمقاومة ويتحدى الظالمين بالموت.

ومن الناس من يواجه الموت بالشوق ويجد في الموت لقاء الله الذي هو راحة لكل نبي وشهيد.

وهذه الانماط الثلاثة التي ذكرناها في طريقة التعامل مع الموت لها تأثير في تنظيم حياة الناس.

فالذين يجزعون من الموت يسهل أمر انقيادهم للطغاة والجبابرة، ولا يجد الطغاة صعوبة كبيرة في

تطويع هذه الشريحة من الناس وترويضهم للاستسلام والانقياد والرضوخ.

بينما لا يجد الطغاة سبيلاً الى تطويع إرادة الشريحة الثانية والثالثة من الناس.

وهذه المسألة تؤثر بصورة مباشرة في الحياة السياسية للأمة، وتاريخها السياسي، وتصنف المجتمعات البشرية سياسياً الى مجتمعات خاضعة سهلة الانقياد للطغاة، ومجتمعات صعبة رافضة منيعة عصّية.

والتاريخ السياسي للمجتمعات البشرية يتقرر ضمن هاتين الحالتين: حالة الخضوع والانقياد للظالم، وحالة الرفض والتمرد على الظالم.

والمجتمع البشري ينشطر الى شطرين أثنين: الشطر المستضعف والمنقاد، والشطر الرافض الذي يأبى الانقياد للظلم... والشطر الاول يُسهلّ حضور

المستكبرين في حياة الناس دائماً. يعكس الحالة الثانية التي تطرد المستكبرين من ساحة المجتمع.

و(يوم عاشوراء) له شأن خطير في تاريخ الاسلام، وفي الاحداث التي تلت وتعاقبت من بعد هذا اليوم.

ونحن عندما نستعرض احداث هذا اليوم في الشرائح الاجتماعية المختلفة التي اقترن ذكرها بأحداث هذا اليوم بشكل من الاشكال من أصحاب الحسين عليه السلام وأهل بيته الذين وقفوا معه عليه السلام والمتخلفين عنه والمتفرجين على ساحة الطف، والمحاربين الذين رفعوا السيف في وجه الحسين عليه السلام .... أقول:

عندما نستعرض هذه الشرائح البشرية الثلاثة والمواقف السياسية الثلاثة للناس في هذا اليوم، نجد أن (للطريقة التي يواجه الانسان بها الموت) تأثير مباشر في تصنيف الناس الذين عاصروا (عاشوراء) الى

الشرائح التي ذكرناها، وفي اخراج المواقف السياسية الثلاثة التي برز بها هذه الشرائح الثلاثة من المجتمع الاسلامي يومذاك.

وكلمات الامام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، وقبله، تعمق المعاني والمفاهيم التي أوجزناها هنا في بداية هذه الدراسة. وتفصيلها إن شاء الله فيما يلي من هذه الدراسة.

وسوف نتأمل في الحالات الثلاثة التي يواجه بها الناس (الموت) في ضوء كلمات الامام الحسين عليه السلام حالة بعد حالة.

١- الجزع من الموت

١- الجزع من الموت

الجزع من الموت ظاهرة واسعة الانتشار في حياة الناس، وهذه الظاهرة تستحق الكثير من التأمل والاهتمام، وفيما يلي نضع هذه الظاهرة موضع التأمل والدراسة في ثلاث نقاط.

أولاً اسباب هذه الظاهرة في حياة الناس.

ثانياً: نتائج هذه الحالة وآثارها في حياة الناس.

ثالثاً: علاج هذه الحالة.

١- أَسباب الجزع من الموت

نستطيع أن نُلَخِّص أهم الاسباب التي تؤدي الى الجزع من الموت في نفوس الناس في نقطتين: التعلّق بالدنيا وسوء الاعداد للآخرة.

أ- التعلق بالدنيا

ولو أنَّ انساناً عاش في هذه الدنيا التي يعيشها الناس وبأفضل ما يعيشه الناس من أسباب الراحة والترف، ولكن من غير أن يتعلق بها، وينشدَّ اليها، وتجذبه الدنيا لهان عليه أمر الموت، ولم يجزع عند حضور الموت. وسوف نتحدث عن هذه النقطة بشيء اكثر من التفضيل فيما يأتي.

ب- سوء الإعداد للآخرة

ومن اسباب الجزع من الموت سوء الاعداد للحياة الآخرة، فيجزع الانسان حينئذ أن يقدم على حياة جديدة لم يُعِدّ لها في حياته الدنيا بالاعمال الصالحة.

والى هذا المعنى تشير الآية الكريمة من سورة الجمعة في مخاطبة اليهود ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ

إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الجمعة/ ٦-٧

وقد روى أنَّ رجلا قال لابي ذر رحمه الله: مالنا نكره الموت؟ قال: لانكم عمرّتم الدنيا وخربتم الاخرة، فتكرهون ان تنتقلوا من عمران الى خراب.

فقيل له: فكيف ترى قدومنا على الله؟

قال: اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

قيل: فكيف ترى حالنا عند الله؟

قال: اعرضوا اعمالكم على كتاب الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ الانفطار/١٣-١٤

قال الرجل: فأين رحمة الله؟

قال: ان رحمة الله قريب من المحسنين(١).

وعن الصادق عليه السلام، قال: أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل فقال مالي لا أحب الموت؟ قال: الك مال؟ قال: نعم قال: فقدّ مته؟ قال: لا. قال: فمن ثم لا تحب الموت(٢).

٢- آثار الجزع من الموت في حياة الانسان:

بين (الجزع من الموت) و(الذل والضعف) صله وشيجة. فكلما يزداد جزع الانسان من الموت يزداد مهانة ومذلة وضعفاً. وعلى العكس من ذلك كلما كان الانسان يستهين بالموت يكون أقوى وأكثر شجاعة وكرامة، وأقوى على الاقدام والاقتحام.

---

(١) بحار الانوار: ٦/ ١٣٧ ح٤٢.

(٢) الخصال: ١/ ١٠.

معادلتان:

واليك توضيح هذه الحقيقة التي شرحتها في المعادلتين التاليتين.

المعادلة الاولى:

عن الامام الصادقعليه السلام (من أحب الحياة ذل)(١).

وفي هذه المعادلة نجد أنَّ حب الحياة يعادل الذل والضعف والهوان.

وتوضيح هذه المعادلة.

١- أنَّ (حب الحياة) هو التعلق بالدنيا.

٢- والتعلق بالدنيا يستتبع دائماً الجزع من الموت، وإذا تعلق قلب الانسان بالدنيا جزع لمفارقتها، وهما وجهان لقضيه وأحدة.

---

(١) بحار الانوار: ٦/ ١٢٨.

٣- ومن جزع من الموت ذلَّ، لأن الجزع من الموت يُفْقِدُ الانسان القدرة على المقاومة وتقرير المصير واتخاذ الموقف بنفسه.

وإذا فقد الانسان القدرة على إتخاذ الموقف والقرار مكّن المستكبرين من نفسه، فيستضعفونه، ويستذلونه، وعندئذ يكون ضعيفاً وذليلاً وتبعاً لإرادة الطغاة المستكبرين.

المعادلة الثانية:

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (حب الدنيا أصل كل معصيه)(١).

وعن الامام الصادق عليه السلام (رأس كل خطيئة حب الدنيا)(٢).

---

(١) تنبيه الخواطر:٣٦٤

(٢) الكافي للكليني:٣١٥/٢. وآمالي الصدوق: ٦١٣.

وهذه المعادلة، تعادل بين (حب الدنيا) و(الخطيئة) والعلاقة بينهما واضحة، فأن حب الدنيا يدفع الانسان الى إبتغاء الدنيا من كل مصادرها الحلال منها والحرام، والفرار من فراقها بكل وسيلة الحلال منها والحرام.

النتيجة:

وعندما نضم المعادلة الاولى الى المعادلة الثانية نصل الى نتيجة تدعو الى كثير من التأمل والتفكير، وهي أن (الخطيئة=الذل).

وهذه النتيجة صحيحة رياضياً وفلسفياً

أماّ من الناحية الرياضية فأن حذف الجزء المتكرر في معادلتين مشتركتين في طرف واحد يؤديّ الى هذه النتيجة، وهو واضح.

وأماّ من الناحية الفلسفية فلان العلة البسيطة الواحدة لا يمكن أن تكون علة لمعلولين. فاذا ذكر

لعلة واحدة معلولان في قضيتين اثنين فأننا نكتشف بالضرورة وحدة المعلولين حقيقة، وان اختلف عنوانهما.

وعليه فأن (الخطيئة) و(الذل) عنوانان لحقيقة واحدة، او وجهان لعملة واحدة.

ولابد من توضيح لهذه الحقيقة الواحدة ذات الوجهين.

إنَّ الخطيئة هي السقوط في إتباع الهوى والطاغوت، واتباع الهوى والطاغوت ذل دائماً، وذلك لان الخطيئة تفقد الانسان القدرة على المقاومة، ويفقد الانسان الاستقلالية في القرار، ويجعل الانسان تبعاً لهواه، وتبعية الهوى صغار وضعف في شخصية الانسان. ومعنى ذلك أنّ الخطيئة والمعصية (ذل)

وقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام:

(من تلذذ بالمعاصي اورثه الله ذلاً)[1].

وهذه هي المعادلة الثالثة التي إستنتجناها من المعادلتين الاولى والثانية، وهي مذكورة بصورة مستقلة في النصوص الاسلامية، كما رأينا.

الموقف

لاشك إن الإقدام والشجاعة والقوة أحد العناصر الثلاثة التي يتألف منها (الموقف السياسي) والعنصران الآخران هما (الايمان) و(الوعي السياسي). والموقف السياسي يتألف من هذه العناصر الثلاثة: الوعي والايمان والشجاعة.

وقيمة الانسان في الساحة السياسية في المواجهة في (الموقف السياسي)، وليس في (النية) و(عقد القلب)، ويتميز أقوياء الناس عن ضعاف الناس في (الموقف)

---

(١) غرر الحكم للامدي: ٣٥٦٥.

لقد كان في عصر الحسين عليه السلام كثيرون من المسلمين لا يرتضون حكم يزيد بن معاوية، وينكرون أعماله، ولكن الحسين عليه السلام وحده بمن معه من أهل بيته وأصحابه حَوّل هذا السخط والغضب والانكار الى (موقف سياسي) حي. وهذا هو سر قيمة حركة الحسين عليه السلام من المدينة الى كربلاء.

ما هو الموقف؟

الموقف السياسي هو تجسيد الرأي السياسي في العمل الميداني الحركي.

إنَّ الناس جميعاً يكرهون الظلم، وينكرون الظلم، إلا أنَّ هناك من يُحَوّل هذا الكره والإنكار الى (فعل سياسي). وهذا الفعل السياسي قد يحمل طابعاً سلبياً كعنوان العصيان المدني، وقد يحمل طابعاً ايجابياً مثل الحركة و(الثورة) المسلّحة ضد النظام المتسلط على الحكم.

والإنكار وحده لا يُكَلِّفُ الانسان شيئاً، مالم يتحول هذا الانكار من النيةّ الى (موقف)، فأذا تحول الى (موقف سياسي) أثقل صاحبه وألزمه ضريبة الموقف. وضريبة الموقف صعبه وعسيرة ومكلفة.

إلا أنَّ الموقف هو الذي يصنع التاريخ، ويغير مجرى حركة الانسان: اما الإنكار، وعقد النية على الرفض فلا يصنع -وحده- شيئاً في حياة الانسان.

والجزع من الموت يسلب الانسان القدرة على اتخاذ الموقف. والذين يتهربون من الموت قد يكسبون الحياة لفترة من الوقت، ولكنهم يخسرون (الموقف) بالضرورة، ويخسرون الحياة العزيزة الكريمة الباقية (عند الله).

إنقلاب (اللاموقف) الى الموقف المضاد

من خصائص ساحة الصراع بين الحق والباطل إنها لا تحتمل (اللاموقف)، وسرعان ما ينقلب فيه (اللاموقف) (الحياد) الى الموقف المضاد.

إنَّ الانسان الذي يضعف عن اتخاذ (الموقف الجريء) في مواجهة الظالم والطاغية، ويقف موقف (الحياد) و(اللاموقف) من ساحة الصراع بين الحق والباطل.... لا يستطيع أن يقف طويلاً في صفوف المتفرجين، وإنّما ينجر الى (الموقف المضاد) لا محالة.

والسبب في هذا الانقلاب هو نفس السبب الذي سلبه القدرة على اتخاذ القرار والموقف، فإن الانسان الذي يضعف من أن يأخذ موقفاً جريئاً في ساحة الصراع بين الحق والباطل، لا يتركه الطاغية في موقف الحياد، وفي صفوف المتفرجين، دون أن يصبغه

بصبغته، ويجره الى الوقوف معه في ساحة الصراع والمواجهة بين الحق والباطل.

وهذه حقيقة خطيرة من سنن ساحات الصراع: أنَّ ساحة الصراع لا تترك الانسان متفرجاً على سير الصراع والمواجهة بين الحق والباطل، لا يصيبه نصب او ظمأ، ولا يدخل في مخمصة الصراع، بل تصنفه الساحة ضمن موقف الطاغية، فاذا لم يبادر الانسان ليصنف نفسه في جهة الحق كما يريد الله تعالى، فإن ساحة الصراع تصنفه ضمن القوة الحاكمة لا محالة، فإن القوة الحاكمة في ساحة الصراع تجذب كل العناصر الضعيفة والحائرة، فيتحول الانسان الى جند السلطان من حيث لا يريد، ومن حيث لا يحب، وقد يكون (عقله) و(قلبه) مع الحق، ولكن موقفه العملي في الميدان وعلى الأرض ينقلب لصالح الباطل.

ظاهرة انفلاق الشخصية في كلمات الامام الحسين عليه السلام

وهذه الظاهرة هي ظاهرة (إنفلاق الشخصية)، حيث تنشطر شخصية الانسان الى شطرين متعاكسين، فيميل (قلبه) و(عقله) الى الحق، بينما ينقلب موقفه الرسمي والمعلن الى صالح الباطل.

وهكذا تنفلق شخصية الانسان الى شطرين مختلفين، ومتعاكسين.

وهذه الظاهرة هي التي يشير اليها الامام الحسين عليه السلام في خطابه لجند ابن زياد في كربلاء يوم عاشوراء، الذين شهروا السيف بوجهه، وأعلنوا عليه الحرب.

يقول لهم الحسين عليه السلام:

«سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم»

إن هذا السيف الذي يشير اليه الامام الحسينعليه السلام هو السلطان الذي منحهم الاسلام.

فقد كان العرب يعيشون قبل الاسلام معزولين في الصحراء عن الساحات الحضارية على وجه الارض إلا ما كان من رحلة الشتاء والصيف.

ولم يكن لهم من حول ولا قوة على وجه الارض، فآتاهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وآله القوة والسلطان، فكانت هذه القوة سيفاً لرسول اللهصلى الله عليه وآله وضعه في أيمانهم، وفضلاً لله ولرسولهصلى الله عليه وآله عندهمُ، فَسَلَّ الناس بعد زمن يسير هذا السيف في وجه إبن رسول اللهصلى الله عليه وآله، واستخدموا هذه القوة لمحاربة آل رسول اللهصلى الله عليه وآله . وكان حريّاً بهم أن يسلّوا هذا السيف في محاربة اعداء رسول الله. وفي نصرة اولياء رسول الله.

فماذا جرى لهذه القوم من إنتكاسه قوية في نفوسهم، حَدَتْ بهم الى أن يستخدموا هذه القوة التي

آتاهم الله ورسوله ﷺ لمحاربة أولياء الله ورسوله ولنصرة أعداء الله ورسوله.

تعددية القلوب والسيوف:

إن التشخيص الدقيق لحالة (الردة) الجاهلية التي يصف بها الحسين عليه السلام جيش ابن زياد ورد في كلمة لفرزدق، عندما التقاه الامام الحسين عليه السلام في طريقه الى العراق، في بعض الطريق، فسأله عما وراءه من أمر الناس في العراق، ورأيهم وموقفهم من حكومة يزيد بن معاوية وخروج الحسين عليه السلام على سلطان بني أميه، فأجابه فرزدق على الخبير سقطت: (قلوبهم معك وسيوفهم عليك).

فقد كان أهل العراق في الأعم الاغلب، من شيعة علي عليه السلام، وكانوا يُحِبوّن علّياً وآل علي عليهم السلام، لا شك في ذلك، وكانت قلوبهمَ مع الحسين عليه السلام، إلا أنَّ

سيوفهم إنقلبت على الحسين عليه السلام، رغم أنَّ قلوبهم كانت مع الحسين عليه السلام.

وهو انقلاب عجيب، وردَّة غريبة في نوعها في حياة الانسان وتاريخه، يحتاج الى وقفه للتأمل والتفكير فنقول:

ثلاثية (العقل والقلب والارادة):

ان الانسان تركيب من (الرأي+ العاطفة+ الموقف) واذا شئت فقل الانسان تركيب من (العقل+ والقلب+ والارادة) والتعبيران متقاربان او متحدان، فأن (العقل) مصدر (الرأي) و(القلب) مصدر (العاطفة) و(الارادة) مصدر (الموقف).

فاذا كانت هذه الثلاثة منسجمة في الاتجاه، وكان رأي الانسان وعاطفته وموقفه شيء واحد وفي اتجاه واحد... كان الانسان قوياً، لا يغلبه الطاغية، ولا ينقاد للظلم، مهما كانت قوة الطاغية وضعف الانسان، ومهما

قويت وتنوعت وسائل الارهاب والترغيب عند الطاغية.

إنشطار الشخصية:

اما عندما تتعاكس هذه الثلاثة فيما بينهما في الاتجاه، وتتضارب فأن الانسان يصبح ضعيفاً، ويكون حينئذ عرضة للاستغلال والاستثمار.

وهذا هو الذي حدث بالذات لجند ابن زياد. فقد كان رأيهم وحبهم باتجاه علي وآل علي عليهم السلام الاّ أن مواقفهم السياسية الصريحة والمعلنة كانت باتجاه أعداء الحسين.

وهذا الانشطار داخل الشخصية، هو بداية الردة، والمرحلة الاولى للردة الجاهلية.

ولنتأمل في نهاية هذه المرحلة الارتدادية، وكان حرياً بفرزدق الذي أدرك بداية هذه الردة في جيش

ابن زياد أن يتنبأ ويعرف نهاية هذه الردة وما تؤول اليه في نهاية المطاف.

أذن نتابع هذه الحركة الارتدادية في ردة الانسان الى الاعقاب.

إنّ بداية الارتداد غالباً من (الموقف) الى (اللاموقف)، ثم من (اللاموقف) الى (الموقف المعاكس).

وهذه المرحلة أخطر من المرحلة الاولى، وتأتي نتيجة حتمية للمرحلة الاولى من الارتداد، فلم يكن عبد الله بن عمر في بداية نشأته مع يزيد بن معاوية يريد أن يدخل في بيعة يزيد، وأنمّا كان يخشى أنّ يقع في الجبهة المعارضة ليزيد، وأن يصيبه من ذلك ما اصاب الامام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، وكان يؤثر العافية لنفسه واهله في ذلك، وكان يحب ان يقف من هذه المعركة الدائرة في الساحة السياسية

موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الامر شيء، ولا يصيبه من هذه المعركة عنت ولاعذاب، ولكن الساحة السياسية كانت أقوى من عبد الله بن عمر، فجذبته من موقع المتفرج (واللاموقف) الى الموقف المعاكس والمؤيد لشرعية حكم يزيد، فاصبح عبد الله بن عمر في المدينة، يدعوا الناس الى بيعة يزيد، ويُحَذِّرُ الناس من مغبةّ الخروج على سلطان يزيد بن معاوية.

وهو أمر طبيعي في رأينا، فإما أن تكون إرادة الانسان أقوى من سلطان الطاغية ونفوذه وإرهابه وإغراءاته، فيتخذ موقف المواجهة والمعارضة من الطاغية، او يتحوّل الى موقع المؤيد الداعم للطاغية وسلطانه، واخيراً الى توجيه شرعية سلطان الطاغية وظلمه. وليس بين هذه المرحلة وتلك برزخ هو (اللاموقف)، الا بقدر ما يكون واسطة العقد في هذه الرحلة الارتداديةّ على الاعقاب.

والمرحلة الاخيرة في هذه الرحلة الارتدادية : أن الموقف المضاد الذي ينتهي اليه الانسان يصادر رأيه وعاطفته بعد أن ينسلخ من (إرادته).

وهذه النتيجة واضحة في المرحلة الاخيرة من رحلة الارتداد، فأن الانسان عندما يتخذ موقفاً لا يرتضيه لنفسه، وهو ما أسميناه بانشطار الشخصية، يسعى لتبرير موقفه ومخادعة نفسه بكل وسائل الخداع والتبرير، حتى يتمَّ له تضليلها، فاذا تم له ذلك وسقطت قلعة (العقل) داخل شخصيته، وانقاد عقله لهواه، تأخذ النفس بهجوم آخر على (القلب)، وهو المعقل الذي يلي معقل (العقل)، فتحاول النفس تنكيس القلب في حبه وبغضه وولائه وبراءته، فيتحول القلب من موقع الولاء الى موقع البراءة، ومن موقع البراءة الى موقع الولاء، فيحب اعداء الله ويواليهم، ويحارب أولياء الله،

ويبرء منهم وهذه الحالة هي حالة انتكاسة القلب الخطيرة[1].

واذا كان فرزدق لم يذكر في حديثه مع الحسين هذه العاقبة المتوقعة لجيش ابن زياد، وهذه النهاية من البؤس والسقوط، فأن القرآن الكريم يشرح لنا مراحل هذه الردة الجاهلية على الاعقاب في حياة الانسان مرحلة بعد مرحلة، ثم ينتهي الى هذه الغاية.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون ﴾[2].

---

(١) المعقل الاخير للمقاومة في الانسان هو (الضمير) وعندما يسقط الضمير ينتهي كل أمل في عودة الانسان الى الله، وهو يحدث في هذه المرحلة يقول نوحعليه السلام كما في القرآن عن قومه ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾نوح/٢٧

(٢) الروم: ١٠.

وإساءة السوأى من فعل الجوارح، ومن مصدر الارادة والتكذيب بآيات الله من فعل القلب، وانتكاسة الارادة تنتهي الى انتكاسة القلوب.

وإنَّ من السوء والسوأى أن يرفع الانسان السيف في وجه اولياء الله لنصرة اعداء الله، فاذا فعل ذلك سلبه الله تعالى الوعي والايمان والتصديق، فيكّذب بآيات الله، واذا كّذب بالله ورسوله، عادى الله ورسوله واولياءه وكرههم وأبغضهم، وبذلك تكتمل حلقات الردة في حياة الانسان وينتهي الانسان الى أسفل السافلين.

كلمة زيد بن ارقم في مجلس الطاغية:

يروى الطبري عن حميد بن مسلم قال: (أقبلت الى الكوفة فوجدت إبن زياد قد جلس للناس، فدخلت فيمن دخل، فاذا رأس الحسين عليه السلام، موضوع بين يديه، وإذا هو ينكث بقضيب له بين ثنيتيه ساعه، فلما رآه زيد بن ارقم لا ينجم عن نكثه بالقضيب. قال له

أعل بهذا القضيب عن هاتين الشفتين، فو الذي لا اله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين، يقبلها، ثم انفضح الشيخ يبكي. فقال له بن زياد: أبكى الله عينيك، فو الله لو لا أنكّ شيخ قد خرفت، وذهب عقلك، لضربت عنقك.

قال فنهض، فخرج، فلما خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن ارقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله. فقلت: ما قال؟ قالوا : مرَّ بنا وهو يقول: ملَّك عبد عبداً فاتخذهم تُلْدا. أنتم يا معشر العرب، العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة، وأمرتّم ابن مرجانه، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعدا لمن رضى الذل(١).

---

(١) الطبري ٧/ ٣٧١.

تحليل وتفسير لكلمة زيد:

إنَّ الذي يراه ويتنبأ به زيد بن ارقم في هذا الموقف هو ما ذكرتاه من تحليل وتفسير قبل قليل.

فالذين امتنعوا عن نصرة سيد شباب أهل الجنة، ووقفوا من مأساة كربلاء موقف المتفرج، جزعوا من إرهاب بني أمية، وسلطان ابن زياد عامل يزيد على العراق، وآثروا العافية في هذه المعركة السياسية، وتجنبوا الدخول في هذه المعركة فآل امرهم في نهاية الشوط الى الذل والصغار لبني أمية، ومكّنوا بني امية وجلاوزتهم وعُمّالهم من انفسهم وأعراضهم.

هؤلاء لم تتابع سيوفُهُم قلوبَهُمْ لضعفهم وجبنهم. إذن لا بد ان تتابع قلوبُهُم سيوفَهُمْ.

وعندئذ يتحولون الى عبيد لبني أمية، وتكون سيوفهم في خدمة بني امية، وقلوبهم متعاطفة مع بني امية.

وتلك سنه حتمية لله تعالى في نهاية هذا السقوط الحضاري والنفسي والاخلاقي في حياة الانسان.

لقد شخص زيد بن ارقم في كلمته هذه ثلاث فئات من العبيد في عصره.

١- حاكم الشام يزيد بن معاوية، وهو عبد لشهواته واهوائه (أفرأيت من اتخذ الهه هواه) تتحكم فيه شهواته وتسلبه حرية الرأي والقرار، وعبد للشيطان: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

٢- عبيد ابن زياد وهو عُبَيْد ليزيد. ونقصد بالعبد من لا يملك القرار والرأي. وهذا هو الفرق بين الاحرار والعبيد. لقد كان ابن زياد مسلوب الارادة والقرار في مقابل يزيد بن معاوية، كما كان عبداً لشهواته

(١) يس: ٦٠.

وأهوائه، وهو من العبودية المزدوجة للطاغوت والهوى، وهو خليط مشؤوم من العبودية.

٣- الناس الذين روّضهم بنو امية لطاعتهم وطاعة عملائهم على البلاد. هؤلاء الناس هم الذين سلّط بنو امية عملاءهم في البلاد عليهم.

عن هذا الثلاثي المشؤوم ثلاثية (الهوى) و(الطاغوت) و(الاستعباد) يقول زيد بن ارقم (مَلَّك عَبدٌ عبداً، فاتخذهم تُلْدا)

يعني اتخذ العبيد من الفئة الثانية العبيد من الفئة الثالثة تلدا والتلْد، كما يقول ابن منظور في (لسان العرب)(١):

(ما ولد عندك من مالِكَ او نتج، وتلاد المال ما تَوَّلد عندك فتلد من رقيق وسائمة)

---

(١) لسان العرب ١/ ٣٢٤ بيروت.

يعني اتخذوا الناس الذين أكرمهم الله تعالى بالإسلام والانسانية، مالا وملكا لهم نتج في سلطانهم، كما يتخذ الناس الرقيق والسائمة مالا وملكا لهم. إنَّ بني أمية يتعاملون مع المسلمين في سلطانهم، كما يتعامل الناس مع دوابهم وسائمهم.

ثم يقول لهم زيد بن ارقم (انتم يا معشر العرب، العبيد بعد اليوم)

وهذه نتيجة لا يمكن أن تتخلف عن تلك القضية.... لقد وضع بنو امية أساساً قويا لاستعباد الناس بالقهر والطمع والتضليل، فلا يمكن أنّ يتخلص الناس يومئذ من هذه العبودية والذل الذي فرضه عليهم سلاطين بنو امية، وسوف يرث الجيل القادم هذه العبودية من آبائهم. وتستمر العبودية وتتصل حلقاتها فيهم، وهو ما يريده زيد بن ارقم على الأقل عندما يقول (انتم العبيد بعد اليوم)... وهو كلام صحيح حسب قانون الوراثة

لأنَّ العبيد لا يلدون الا العبيد، وهو ما يشير اليه إبن أرقم بقوله (أتخذوهم تُلْدا) والتُلْد. نتاج المال من سائمة ورقيق، كما يقول علماء اللغة.

ثم يضع زيد إصبعه على موضع الجرح بشكل دقيق، ويبين من أين جاءتهم هذه، العبودية لآل ابي سفيان الطلقاء. يقول: (قتلتم ابن فاطمة وأمرتم ابن مرجانه).

وحقيق على الله أن يُذلَّ من يُؤمّر أبن مرجانه على نفسه، ويقتل ابن فاطمة عليها السلام، ويَمُكنّ ابن مرجانه من نفسه ويجعل له سلطانا عليه.

إسمعوا الى خطابه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾(١).

(١) النساء: ١٤٤.

إنّ هؤلاء الناس والوا الفاسقين من دون الصالحين، والوا آل ابي سفيان دون آل رسول الله، فحقيق على الله أن يجعل لآل ابي سفيان الطلقاء وآل مروان سلطاناً عليهم.

وهو بالذات الخطاب الذي خاطب الحسين عليه السلام به الناس يوم عاشوراء في كربلاء.

(فأصبحتم إلباً لا عدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم.... فسحقاً لكم يا عبيد الامة وشذاذ الافاق)(١).

إنَّ آل ابي سفيان أعداء الناس في الجاهلية والاسلام. يطلبون السلطان والاستعلاء على الناس، وآل رسول الله صلى الله عليه وآله أولياء الناس... وهؤلاء الناس تألّبوا على اوليائهم لصالح اعدائهم (فاصبحتم إلباً لا عدائكم على اوليائكم)، فاتخذوا أعداءهم أولياء لهم،

---

(١) اللهوف لابن طاووس ٣٧.

واتخذوا أولياءهم أعداء لهم، فأمرّوا ابن مرجانه وقتلوا ابن فاطمة.

فكان حقيقا على الله أن يجعل لآل أمية سلطانا عليهم يستعبدونهم، ويذلونهم، كما يقول زيد بن ارقم.

وهذا هو دعاء الحسين عليه السلام عليهم حينما وقفوا الى جانب ابن مرجانه لقتال آل رسول الله صلى الله عليه وآله: (فسحقاً لكم ياعبيد الامة وشذاذ الافاق)

ونعود مرة اخرى الى كلمة زيد بن ارقم.

يقول زيد عن عاقبة هذا التأمير والقتل: (أمرّتم ابن مرجانه وقتلتم ابن فاطمة) يقول لهم زيد عن عاقبة تأمير بني أمية وابن مرجانه: انهم سوف يقتلون خيارهم الذين لا يرضخون لهم بالعبودية بتمكينهم من انفسهم: (فهو «ابن مرجانه» يقتل خباركم ويستعبد شراركم).

ثم يشير زيد بن ارقم الى كلمة في ختام خطابه للناس ، لابد ان نتوقف عنده.

إنَّ العبودية والاستضعاف والاذلال ليس من مقولة الايقاعات كالطلاق والعتق، يتم بالايقاع من طرف واحد، ولا يحتاج الى قبول، وإنمّا هو من مقولة العقود، كالبيع والشراء والنكاح والاجارة والشركة يحتاج الى إيجاب من أحد الطرفين وقبول من الطرف الآخر..

فلا يتحقق الذل والاستضعاف والتعبيد من طرف الظالم وحده، مالم يرضى الطرف الآخر به.

وفرق بين الظلم والذل. فقد يتحقق الظلم من طرف واحد لطرف آخر من دون قبول الطرف الآخر، ولكن لا يتحقق الذل من طرف واحد، مالم يتقبل الطرف الآخر الذل.

إذن لن يكون بنو أمية وحدهم المسؤولين فقط عن سقوط هؤلاء الناس الذين أكرمهم الله بالإسلام في الذل، وإنما الناس ايضاً يشاركون بني أمية في مسؤولية هذا الذل.

فان الذل إذلال من جانب وقبول للذل من جانب آخر ومالم يقبل الطرف المظلوم هذا الذل لا يتمكن الطرف الظالم من أذلال المظلوم.

والله تعالى (لم يأذن للمؤمن ان يذل نفسه)، كما يقول امير المؤمنين عليه السلام.

فيقول لهم زيد بن أرقم أنكّم تتحملون شطراً كبيراً من مسؤولية هذا الذل والعبودية لأنكم رضيتم بهذا الذل. يقول زيد: (فرضيتم بالذل فَبُعْداً لمن رضى بالذل).

ونكمل مقولة زيد بن ارقم بكلام لجعفر بن محمد الصادقعليه السلام سبق أن قدمناّه: (من أحب الحياة ذل)(١).

يحتشد في قصر الطاغية ابن مرجانه يومئذ خلق كثير من أهل الكوفة، وآل رسول اللهصلى الله عليه وآله على هيئة الاسرى في هذا الاجتماع الكبير، ورأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في طست بين يدي الطاغية ينكث شفتيه بقضيب له في يده.

ثم لا يرتفع صوت واحد من بين ذلك الجمهور الغفير غير صوت زيد بن ارقم الذي ازعج الطاغية وعكّر عليه زهوه وطغيانه يومئذ.

إنَّ هذا المشهد وحده يكفي لنفهم ماذا كان يقول إبن ارقم في خطابه للناس في ذلك الحشد الكبير.

---

(١) بحار الانوار ١٢٨.

كيف نكافح حالة الجزع من الموت:

ونختم هذا البحث بالإجابة على السؤال التالي: كيف نكافح حالة الجزع من الموت؟

ومن دون أن ندخل هذا البحث بتفصيل... أقول: أهم عاملين لمكافحة حال الجزع من الموت هما:

ترقيق العلاقة بالدنيا، ومحاولة تقصير الأمل في الدنيا. وهذان عنوانان، ولكن يؤولان الى أمر واحد. فإنّ تقصير الأمل في الدنيا يؤدي لا محالة الى ترقيق علاقة الانسان بالدنيا، فاذا ضعف تعلق الانسان بالدنيا هان عليه الموت، ويتمّ ذلك للإنسان بالتهيؤ الدائم للموت، وأن يجعل الموت دائماً نصب عينيه، لا يفارقه.

ولذلك نجد في منهج التربية الاسلامية تأكيداً وتركيزاً كثيراً على ذكرين، هما ذكر الله تعالى وذكر الموت... هذا اولاً .

وثانياً من عوامل مكافحة حالة الجزع من الموت، ترغيب النفس الى لقاء الله، والإعداد لذلك بالأعمال الصالحة التي تَعِدُ الانسان للقاء الله، وتكسب الانسان مرضاة الله تعالى ونعيم الجنة.

في مكارم الاخلاق عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا ابن مسعود قصّر أملك، فإذا أصبحت فقل أني لا أمُسي، وإذا أمسيت فقل أني لا أصُبح، واعزم (على) مفارقة الدنيا، وأحبَّ لقاء الله، ولا تكره لقاءه، فإنّ الله يحب لقاء من يحب لقاءه، ويكره لقاء من يكره لقاءه»(١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنَّ النور إذا دخل الصدر أنفسح، قيل: هل لذلك من علامة يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»(٢).

---

(١) مكارم الاخلاق: ٤٥٢.

(٢) كنز العمال: ١/٧٦ ح٣٠٢.

وعن علي عليه السلام: «شوقوا انفسكم إلى نعيم الجنة تحبوا الموت وتمقتوا الحياة»(١).

---

(١) غرر الحكم: ٤١٣.

٢- تحدي الموت

٢- تحدي الموت

من الظواهر البارزة في خروج الامام الحسين عليه السلام على سلطان بني أمية (تحدي الموت، والاستهانة به، واستقباله بعزم وقوه، وعدم الهروب منه) وهذه عناوين عديدة لحالة واحدة.

وفي مقابل هذه الحالة الجزع من الموت:

وهما حالتان متعاكستان متناقضتان كل منهما ينقض الاخرى.

ولكل منهما آثار ونتائج في الحياة السياسية والاجتماعية والحركية.

وعلى نحو الايجاز: آثار حالة تحدي الموت: المقاومة والكرامة والعزة وإباء الضيم على الصعيد الفردي والاجتماعي.

ونتائج حالة الجزع من الموت: الذل وقبول الضيم وفقدان الكرامة.

وحول هذا المحور نجد في حركة الامام الحسينعليه السلام وخروجه على يزيد بن معاوية ظاهرتين بارزتين هما:

١- الدعوة الى الموت:

٢- والاستماته:

وفيما يلي نتوقف إن شاء الله عند هاتين الظاهرتين في خروج الامام الحسين وقفه قصيرة بقدر ما تتحمّله هذه المقالة.

واليك تفصيل هذه العناوين.

١- الدعوة الى الموت:

في ثورة الإمام الحسينعليه السلام ظاهرة واضحة تتميز بها عن سائر الثورات في تاريخ الحركات والثورات والاعمال العسكرية.

وهي الدعوة الى الموت، وتوطين النفس للقاء الله، والخروج لاستقبال الموت.

فقد كان الحسين عليه السلام يعلم، علم اليقين، أنه يقتل في خروجه هذا، ولم يكن يشك في هذه الحقيقة، ولمّا أخبره عمر الاطرف أبن أمير المؤمنين، أخوه من أبيه: أنهّ يقتل في خروجه هذا الى العراق، وأشار اليه بعدم الخروج. قال له الحسين عليه السلام حدثني أبي أن رسول الله أخبره بقتله وقتلي، وان تربته تكون بالقرب من تربتي. أتظن انك علمت مالم اعلمه، وإنّي لا أعطي الدنية من نفسي ابداً، ولتلقين فاطمة أباها شاكية مما لقت ذريتها من أمته)(١).

وقال لأم المؤمنين أم سلمه (رضوان الله عليها): (يا أماّه، أنا أعلم أني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً وقد شاء عز وجل أن يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي

---

(١) اللهوف: ص١٥.

مذبوحين، مأسورين، مقيدين، وهم يستغيثون، فلا يجدون ناصراً.

فقالت ام سلمة: واعجبا فأين تذهب وانت مقتول؟

قال عليه السلام يا اماه إن لم اذهب اليوم ذهبت غداً، وإن لم أذهب في غد ذهبت بعد غد، وما من الموت والله بدَّ، وإني لأعرف اليوم الذي أقتل فيه والساعة التي أقتل فيها(١).

وحديث الحسين عليه السلام مع ام سلمه معروف ينقله الكثير من ارباب السير.

وقال لعبد الله بن الزبير عندما طلب منه أن يقيم في الحجاز (وأيم الله لو كنت في ثقب هامة، من هذه الهوام لا ستخرجونني حتى يقضوا في حاجتهم، والله ليعتدينَّ علَّى، كما اعتدت اليهود في السبت)(٢).

---

(١) بحار الانوار: ٤٤/ ٣٢٧- ٣٣٢. ومدينة المعاجز ٢٤٤.

(٢) الكامل لابن الاثير:١٦/٤.

وقال لعبد الله بن عباس، وهو يطلب منه أن يمتنع عن الخروج الى العراق: (والله لايدَ عُوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فأذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يُذلهم حتى يكونوا أذل من (فِرام المرأة)(١).

فلم يكن عليه السلام إذن يشك في أنه يقتل في خروجه هذا، ولسنا بحاجة الى هذه النصوص وأمثالها، وهي كثيرة، لنعرف هذه الحقيقة.

فما كان يعرفه محمد ابن الحنفية، وعمر الاطرف، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأم سلمة، وعبد الله بن جعفر، وغيرهم من إقبال الناس على بني أمية وإعراضهم عن آل علي عليه السلام لا يمكن أن يخفى على الحسين عليه السلام. فلم يكن هؤلاء الذين ينصحون

---

(١) الكامل لابن الأثير: ١٦/٤ الفرام: (القطعة التي تحملها المرأة أيام عادتها الشهرية) القاموس للفيروز آبادي.

الحسين عليه السلام بالامتناع عن الخروج الى العراق ينبأون الحسين عليه السلام عن غيب بما يلّم به وبأهل بيته وأصحابه من القتل، وإنما كانوا ينبؤونه عن حسّ وشهود، ولم يكن الحسين عليه السلام غائباً عما كانوا يشهدونه ويرونه، ولم يكونوا أعلم من الحسين عليه السلام بالظروف السياسية التي كانت تحيط العراق يومئذ.

خطاب الحسين عليه السلام عند مغادرة الحجاز الى العراق:

عندما عزم الحسين عليه السلام على مغادرة الحجاز الى العراق قام خطيباً في مكة، فحمد الله وأثنى عليه.

وقال: (خطَّ الموت على ابن آدم مَخَطّ القلادة على جيد الفتاة). وما أولهني الى أسلافي إشتياق يعقوب الى يوسف، وخُيّرلي مصرع أنا لاقيه. كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني اكراشا جوفا وأجربة سُغْبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل

البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجُور الصابرين. لن تشذ عن رسول الله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تَقِرُّبهم عينه، وينجز بهم وعده. الا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطَّنا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فأني راحل مصبحاً ان شاء الله)(١).

أننا لا نعرف قائداً في التاريخ يطلب ما يطلبه الحسينعليه السلام عند خروجه الى العراق. فكل قائد يدعو الناس الى نيل غاية معينه من فتح او سلطان أو موقع سياسي او عسكري أو هزيمة في صفوف الاعداء، ويقدّر إنَّ هذه المهمة السياسية او العسكرية او الاقتصادية تتطلب التضحية بعدد من جنوده وأفراده، ولكنه يدعوا الناس اليها لا الى التضحية والموت.

(١) اللهوف: ص٣٣ ط صيدا. وبحار الانوار ٣٦٧/٤٤. ومثير الاحزان لابن نما الحلي: ٣٨. والعوالم: قسم الامام الحسينعليه السلام ٢٢٦/١. والخصائص الحسينية للشيخ جعفر التستري.

أماَ الحسين عليه السلام، فهو لا يطلب شيئاً من ذلك، وهو يعلم أنه لا ينال شيئاً من ذلك في مقابل سلطان بني أمية، ويقدّر أنه لا يستطيع بهذه العصابة المحدودة التي خرجت معه من الحجاز الى العراق أن يهزم حكومة بني أمية، ولا يستطيع ان يكسب إمامة المسلمين، التي لم يكن أحد يومئذ اولى منه بها على وجه الارض.

ولا يمكن أن يغيب عن الامام الحسين عليه السلام ما كان يعرفه كل من نصحه يومئذ بالعدول عن التوجه الى العراق، ولم يكن الامام عليه السلام يرتاب في صدق عدد ممن نصحه عليه السلام بالعدول عن هذا السفر.

ولا نجد في شيء من كلمات الامام عليه السلام من حين خروجه من مكة الى أن بلغ كربلاء، أنه يأمل او يرجو أن يهزم بني أمية، على الاقل في العراق.

وأنما كان يدعو الناس الى القتل والشهادة في سبيل الله ونصرة دينه، ومن كان يعتذر الى الامام عليه السلام من الوقوف الى جنبه ونصرته في خروجه على بني امية كان ينصحه بالابتعاد، لئلا يسمع واعيته (إستغاثته) فلا ينصره، فيكبه الله على وجهه في النار.

هذه هي الخصلة المميزة لثورة الحسين عليه السلام، فإن الدم والشهادة في كل حركة وثورة ضريبة للانجازات السياسية والعسكرية والرسالية المرحلية والنهائية. ولكن الدم في حركة الحسين عليه السلام هو الغاية التي يطلبها الحسين عليه السلام في هذه المرحلة.

دماء الشهداء بين (الوسيلة) و(الضريبة):

وحتى إذا شئنا الدقة في التعبير واعتبرنا الشهادة (غاية مرحلية في حركة الحسين) وأداة ووسيلة لتحقيق الغاية النهائية، وهي إسقاط شرعية بني امية في الخلافة، وإعادة الوعي والارادة والضمير الى نفوس

الناس، فإن الشهادة تكون (وسيلة) في حركة الحسين عليه السلام وليست ضريبة.

وفرق كبير بين (الوسيلة) و(الضريبة).

ولا يختلف الأمر في النتيجة، أن تكون الشهادة هي (غاية مرحلية)، او (وسيلة لغاية نهائية)، فإنها تبقى الصفة المميزة لهذه الثورة الفريدة في التاريخ، والعنوان البارز لها، دون سائر الحركات والثورات، التي تعتبر الشهادة والدم ضريبة، لا بد منها في سبيل تحقيق غاياتها.

وهذه الميزة الفريدة في الثورة الحسينية هي روح هذه الثورة الخالدة، ونفيها او تجاهلها نفي لروح هذه الثورة وتجاهل لها.

أن الحسين عليه السلام لا يطلب النصر بالغلبة العسكريّة كما هو القاعدة في الحروب، وإنما يطلب النصر بالموت، ويطلب بالموت أن يُحسسّ المسلمين ويعيد

اليهم أنفسهم وضمائرهم. إن الموت في ثورة الحسين عليه السلام بوابة الحياة، والحسين عليه السلام يريد أن يدخل الحياة ويدخل المسلمون الحياة من بوابة الموت، فإذا هانت عليهم حياة الدنيا واستقبلوا الموت كرمت حياتهم وطابت لهم ولأبنائهم وأحفادهم الحياة.

واليك تفصيل هذا الاجمال:

أ- الغاء شرعية خلافة بني أمية

كان من أعظم ما أنجزه سيد الشهداء عليه السلام في كربلاء في ثورته وخروجه على يزيد بن معاوية سلب الشرعية من خلافة بني أمية وقد كانت (الشرعية) إحدى أهم دعائم سلطان بني امية في العالم الإسلامي، وكان بنو أمية يحكمون المسلمين باسم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذه الشرعية كانت تُمكّنهم من رقاب المسلمين، باسم الاسلام، وتعطي لمخالفاتهم وانحرافاتهم وظلمهم طابعاً دينياً اسلامياً.

وإذا كانت النقطة الاولى تمكنهم من رقاب المسلمين واذلالهم وتطويعهم لحكمهم، فإن النقطة الثانية كانت تهديداً مباشراً لسلامة الإسلام.

فقد عُرفَ بنو أمية بميولهم ونزعاتهم الجاهلية والقبلية التي لم تفارقهم أيام استلامهم موقع الخلافة. وكتب التاريخ والادب مثل (الاغاني وتاريخ الطبري، وتاريخ دمشق والكامل لابن الأثير) حافلة بممارسات حكم بني امية الخارجة عن حدود الله تعالى، مثل الظلم، وقتل النفوس البريئة، وملاحقة الأبرياء، والشرب، والسكر، واللهو الحرام، والطرب، والإسراف، والتبذير في بيت المال، والاستهانة بحدود الله وأحكامه وشرائعه.

وحيث كان بنو أمية يحكمون الناس من موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله كان هذا التحريف الجاهلي كلّه

يتم باسم الاسلام ويدخل في الاسلام، ولمّا يمض بعد على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله غير نصف قرن.

لقد عرف الحسين عليه السلام خطورة عامل الشرعية الدينية في حكومة بني امية على الاسلام، وأن بني أمية أذا مضوا في هذا السبيل، دون أن يتصدى أحد لتعريتهم وفضحهم فسوف يكون لحكمهم وسلطانهم أثر تخريبي على الإسلام بالذات، ولن يبقى من الإسلام شيء يذكر. وقد قال لمروان بن الحكم، عندما طلب منه أن يبايع يزيد: (إنا لله وأنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد).

ولذلك عمد الامام عليه السلام إلى تسقيط بني أمية، وسلب الشرعية الدينية عنهم... وتحققت هذه الغاية بمصرع الحسين عليه السلام واهل بيته وأصحابه على يد بني أمية في كربلاء.

ولم تعد اليد التي قتلت الحسين عليه السلام مؤهله في نظر عامة المسلمين لأن تحمل امانة خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد واقعة الطف سنة ٦١ هجرية.

ولقد هزَّ مصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ضمائر المسلمين ومشاعرهم هزّة عنيفة، فقدت فيها السلطة الاموية الشرعية والقدسية التي كانوا يحرصون عليها في نظر جماهير المسلمين.... بل عمّت هذه النتيجة الخلافة العباسية، فلم يعد للعباسيين الشرعية التي كانت الخلافة تتمتع بها من قبل.

وأصبح المسلمون يتعاملون مع هاتين الاسرتين الحاكمتين، كما يتعاملون مع أية سلطة زمنية، وحلتّ طبقة جديدة منذ هذا التاريخ، في موقع الشرعية محل الخلافة، وهي طبقة الفقهاء والعلماء عند السنة. أماّ عند الشيعة فكان أهل البيت عليهم السلام أساس الشرعية إلى هذا اليوم.

وهذه هي الغاية الاولى التي حققها مصرع الحسين عليه السلام.

ب- العودة الى الذات:

والغاية الثانية التي حققها مصرع الحسين عليه السلام هي (العودة الى الذات) وهي لا تقل أهميةً عن الأولى. فقد صادر بنو امية خلال هذه الفترة من حكمهم إرادة الأمة ووعيها بـ(الإرهاب) و(التضليل) و(الأغراء) الذي مارسه بنو امية في نفوس الناس. ولقد نشأ جيل من المسلمين وسط هذا التضليل والارهاب والاغراء في العراق والشام ومصر والحجاز وسائر أقطار العالم الإسلامي، لا يعرفون الإسلام إلا من خلال قصور بني أمية.

وواجه الحسين عليه السلام هذه الكارثة في وسط الامة، كما واجه الكارثة الاولى على قمة الحكم والسلطة من الهرم الاجتماعي.

والى هذه الكارثة يشير عليه السلام في خطابه الذي وجهه الى الجيش الذي جهّزه بنو امية لقتاله في كربلاء من أهل الكوفة، يقول لهم (فأصبحتم ألبا لأعدائكم على

أوليائكم من غير عدل أفشوه فيكم ولا امل اصبح لكم فيهم).

وهذا الذي يتحدث عنه الامام عليه السلام في هذه الكلمة كارثة حلّت بالناس، وفتنه عظيمة أفتتن بها الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وإذا اردنا ان نسمي الاشياء باسمائهم فنقول انها حالة فقدان الذات. فإن للأنسان، افراداً او جماعات، أعداء وأصدقاء، وهو يتعامل مع كل منهما بما تقتضيه الحالة.

وهذه هي الحالة الصحية في نفس الانسان، يميزّ بها اصدقاءه عن أعدائه، ويعيش بصورة متناسبة بين هاتين البؤرتين.

والانسان في هذه الحالة يعيش في حالة صحية في شبكة العلاقات الاجتماعية، بخطوطها الحمراء والخضراء والصفراء، بصورة متناسبة ومعقوله.

فإذا فقد التمييز بينهما، واتخذ أعداءه أصدقاء، واتخذ أولياءه أعداء، كان ذلك بمثابة إنتكاسة في

ذاته، لأن الانتكاسة في التعامل مع هاتين البؤرتين في شبكة العلاقة لا يكون إلاَّ بانتكاسه في الذات.... وهذا هو الذي حلَّ بكثير من الناس في عهد بني امية، فاتخذوا آل ابي سفيان بفعل الترهيب والترغيب والتضليل اولياء، واتخذوا آل رسول الله صلى الله عليه وآله أعداء يقاتلونهم ويحاربونهم ويتبرأون منهم.

وهذا هو الذي يشير اليه الامام عليه السلام في خطابه لجند ابن زياد يومئذ في كربلاء.

(فأصبحتم إلبا لأعدائكم على أوليائكم. من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

أجل إن الناس تألبوا على أوليائهم آل رسول الله صلى الله عليه وآله في كربلاء بالقتال والحرب والبراءة، لصالح أعدائهم من آل أبي سفيان. فاتخذوا أعدائهم أولياء، واتخذوا أولياءهم اعداء.

وهذا هو الذي ذكرناه من الانتكاسة في شبكة العلاقة، وأنهاّ لا تكون إلا إذا تسبقها انتكاسة في الذات، ونكران الانسان لنفسه.

ولم يرتد هؤلاء الناس عن آل رسول الله صلى الله عليه وآله الى آل أبي سفيان (بني امية) لأنَّ بني أمية تَحوَّلوا من الظلم الى العدل، بل ولم يأمل الناس فيهم إن يتحولوا من الظلم الى العدل ومن الضلال الى الهوى. كلاّ، وإنمّا قبل الناس بني أمية أولياء لهم من غير أن يأملوا فيهم عدلاً وخيراً، واتخذوا آل رسول الله صلى الله عليه وآله أعداء من غير أن يخشوا منهم ظلماً او حيفاً.

(من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح كله فيهم).

لقد هزهّم مصرع الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه هزّة قوية أعادت إليهم رشدهم وانفسهم، وأشعرتهم بالندم الشديد للتخلي عن نصره ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله. وسقط حاجز الخوف الذي أقامه بنو أمية لتثبيت سلطانهم وملكهم.

وأحبط الامام الحسين عليه السلام بمصرعه الفقه الذي إنتحله بنو أمية وعلماء البلاط الأموي في حرمة الخروج على الحاكم الظالم.

وهو الفقه الذي لا يزال سائداً في بعض المذاهب الفقهية، منذ عصر بني امية الى اليوم، ويستريح الى هذا الفقه الأموي كل طاغيه جبار، يحكم المسلمين بالإرهاب والقتل والفساد، ويحتمي بما إنتحله فقهاء البلاط الاموي على رسول الله ﷺ من رواية طاعة الامراء وإن جارو أو ظلموا وانتهكوا الحرمات... ورسول الله ﷺ بريء من كل ذلك.

وقد وجد المسلمون في ثورة الحسين عليه السلام على يزيد دليلاً على بطلان هذا الفقه، وشرعية المقاومة والاعتراض والخروج على الظالم.

٢- الاستماته:

أجتمع حول الحسين عليه السلام كوكبة من الرجال والنساء يقل نظيرهم في الإخلاص لله والاستهانة بالحياة الدنيا، والوعي والبصيرة، والعزم والارادة، واليقين، والاعراض عن الدنيا ومتاعها، والاقبال على الآخرة ومرضاة الله فيها. ومن أبرز ما نجد في هؤلاء الرجال الإبطال الذين حفّوا بالحسين عليه السلام في كربلاء هو حالة (الاستماته).

فقد دعاهم الحسين عليه السلام الى الموت في مكة عشية يوم التروية.

ودعاهم الى أن يوطنوا انفسهم للقاء الله، إذا أرادوا أن يصحبوه في هذه الرحلة فقال: (فمن كان باذلا فينا مهجته، موطّنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا)

وكأنّهُ يقول لهم من لم يوطّن نفسه للقاء الله لن يطيق الرحلة معه.

فلم يبق معه من الناس إلاّ هذه الكوكبة الخالصة النقيه التي هي صفوة الصفوة من هذه الأمة التي وطّنت نفسها للقاء الله، وحضرت كربلاء بصحبة الحسين عليه السلام، تطلب الموت للقاء الله ومرضاته.

وعندما ينهض بالأمر جماعه مستميته، تطلب الموت، ببصيرة ووعي، لا يحجزهم شيء عن تحقيق ما يطلبونه.

فإن الخوف من الموت هو الذي يحجز الناس عما يريدون من إحقاق الحق وأبطال الباطل.

وإنّ جبابرة الأرض إنّما، يملكون الناس ويحكمونهم، ويستعبدونهم بالتهديد والارعاب بالقتل.... فإذا سقط الخوف من نفس الانسان وكان هو الذي يطلب الموت، ويسارع إليه، فلن يَصُدهَّ عندئذ، عن إحقاق الحق وإبطال الباطل شيء.

وقد جعل الله تعالى في موتهم، قتلاً في سبيل الله، كسراً لحاجز الخوف، وهدماً لقلاع الطغيان والظلم.

ولن يتكافأ طرفان - على الاقل من الناحية الكيفية- يتقاتلان: طرف يطلب الموت، وطرف يهرب من الموت.

إنَّ الاستماته فوق الشجاعة بدرجة، لأن الشجاع لن يحجزه الخوف من الموت في الاقدام.... وهذه ميزه كبيرة، ولكن المستميت يطلب الموت، وهو فوق الشجاع.

ولسنا نشك أنَّ الذين حفّوا بالحسين عليه السلام يوم عاشوراء في كربلاء كانوا قوماً مستميتين، وكانوا الجماعة النموذجية الرائدة في تاريخ الاسلام للاستماته عن وعي وبصيرة، وإنما نقول عن وعي وبصيرة ونؤكد عليها، لأنَّ الاستماتة عن غير وعي وبصيرة نحو من الانتحار، وليس من الشهادة في شيء.

ولابد أن نتوقف عند هذه النقطة.

إن الاستماته اذا أفرغت من الايمان والاخلاص يزد على ان يكون انتحاراً.

وللحركات الانتحارية في التاريخ الإسلامي تاريخ طويل، يبدأ من الخوارج في القرن الهجري الأول، ويمتد إلى الجماعات الباطنية المنسوبة الى الحسن الصباح في أواخر القرن الخامس الهجري، ويمتد إلى الحركات الارهابية في عصرنا من الذين يُفُجرِّوَن المساجد والمستشفيات والأسواق على الأبرياء، رجالاً ونساء واطفالاً، ويكفرّون المسلمين من حملة لا اله الا الله في العراق وافغانستان وباكستان. وتمنيتّ أن يتسع لي الوقت لا تحدث عن الاستماته بشكل تفصيلي ولكن الدخول في هذا البحث يخرجنا عما نحن بصدده.

إن حالة الاستماته اليوم يقع بين خطرين، لابد من علاجهما.

الخطر الاول تفريغ حالة الاستماته من الوعي والبصيرة والايمان والاعتدال الفكري والثقافي، وهو ما نسميه اليوم بـ(غسيل الدماغ)، ويجري اليوم هذا العمل على ايدي الجماعات الارهابية الذين لا يتورّعون عن قتل المسلمين الابرياء بالجملة... ولهذه الحالة جذور وعمق في تاريخ الاسلام في الخوارج في عصر أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وامتداد في سائر العصور...

وسلام الله على علي امير المؤمنين عليه السلام عندما قاتل الخوارج فقتلهم، قيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم، فقال عليه السلام: كلاّ والله، انهم نطف في أصلاب

الرجال وقرارات النساء، كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصاً سلابين[1].

الخطر الثاني: التسقيط الإعلامي الواسع الذي تواجه به أمريكا و أوربا واسرائيل والضالعين في ركبهم الشباب المجاهدين المستميتين الذين يقتحمون قلاع الكفر المنيعة، بشجاعة وجرأه نادره، من مثل شباب الحركة الاسلامية في فلسطين، وشباب حزب الله في لبنان، وشباب المقاومة الاسلامية في العراق الذين أرغموا امريكا على الانسحاب من العراق، وهدموا قلاع صدام من قبل الامريكان قلعة بعد قلعة.

إنّ الاستماته تقع اليوم بين التفريغ والتسقيط. تفريغ الاستماته عن قيمتها من الايمان والاخلاص والوعي

---

(١) نهج البلاغة قسم الحكم والكلمات / كلمة ٦٠

والبصيرة، وتسقيطها بالوسائل الاعلامية الواسعة التي تمتلكها دول الاستكبار العالمي، وعملاؤهم في المنطقة الاسلامية.

ونعود مرة أخرى الى ظاهرة الاستماته في أنصار الامام الحسين عليه السلام في كربلاء، ونعتذر عن الاستطراد الذي جرى في سياق هذا الحديث.

مشاهد من الإستماته في مواقف أنصار الحسين عليه السلام بكربلاء.

قَدِمَ أنصار الحسين عليه السلام بصحبة الحسين عليه السلام الى كربلاء، ليقتلوا في سبيل الله، ولينالوا الفتح بالقتل في سبيله تعالى.... وهؤلاء هم الرجال من انصار الحسين عليه السلام.

وصحبت النساء الامام عليه السلام في حركته الى كربلاء لينلن الأسر، ولم يكن ذلك ليخفى عليهن. فهؤلاء قوم فاتحون يطلبون الفتح بالقتل والأسر في سبيل الله.

وعندما يقترن هذا العمل العظيم قتلاً وأسراً في سبيل الله باليقين والإخلاص والوعي والبصيرة يحقق المعجزات الكبيرة في التاريخ.

وهذا هو بعض السر في خلود يوم عاشوراء في وجدان الأمة وتجدّده عاماً بعد عاماً، وإحتفاء جمهور المؤمنين، بهذه الصورة المشرقة المتألقّة.

لقد ضرب أنصار الحسين عليه السلام من رجال و نساء (رضوان الله عليهم جميعاً) أروع الأمثلة في الثبات، والصمود، والمقاومة، واليقين، والوعي، والبصيرة، والاستماته، والاستهانة بالدنيا، والإعراض عنها، والإقبال على الله ورضوانه تعالى.

مشهد من ليلة عاشوراء:

ونحن في هذه المقالة نستعرض مشهداً واحداً من مشاهد الاستماته والاستهانة بالموت والشوق الى لقاء

الله في الطف، وهو من أروع ما يعرفه التاريخ برواية السيد المقرم في (المقتل)... يقول رحمه الله:

جمع الإمام أصحابه وأهل بيته ليلة العاشر من المحرم وطلب منهم أن ينطلقوا في رحاب الأرض ويتركوه وحده، وقد أراد أن يكونوا على هدى وبينة من أمرهم، فخطب فيهم قائلاً: (أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين فاجعلنا لك من الشاكرين،

أماّ بعد فاني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرَّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، إلا واني لا أظُنٌّ ليومنا من هؤلاء الأعداء غداً، وإني قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا في حلّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد

غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً، ثم تفرقوا في البلاد في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله فان القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لهو عن طلب غيري)[1].

(١) ابن الاثير ٥٧:٤ ،طبعة بيروت ١٩٦٥م، المنتظم لابن الجوزي، وروى كلامة بصورة اخرى، فقد جاء في بعض المقاتل: انه عليه السلام قال: انتم في حل من بيعتي فالحقوا في عشائركم ومواليكم، وقال لأهل بيته: قد جعلتكم في حل من مفارقتي فإنكم لا تطيقونهم لتضاعف اعدادهم وقواهم، وما المقصود غيري فدعوني والقوم فإن الله عز وجل يعينني ولا يخليني من حسن نظره كعادته مع اسلافنا الطيبين، ففارقه جماعة من معسكره فقال له اهله: لا نفارقك ويحزننا ما يحزنك، ويصيبنا ما يصيبك، وانا اقرب ما نكون الى الله اذا كنا معك، فقال لهم: إن كنتم وطنتم انفسكم على ما وطنت نفسي عليه، فاعلموا ان الله انما يهب المنازل الشريفة لعباده لاحتمال المكاره، وأَن الله كان خصني مع من مضى من اهلي الذين انا آخرهم بقاء في الدنيا من الكرامات بما يسهل علي معها احتمال المكروهات، فإن لكم شطراً من كرامات الله، واعلموا أَن الدنيا حلوها ومرها حلم والانتباه في الاخرة والفائز من فاز فيها والشقي من شقى فيها.

جواب أهل بيته:

لم يكاد يفرغ الإمام من كلماته حتى تهيأت الصفوة الطيبة من أهل بيته يعلنون اختيار الطريق الذي يسلكه، ويتبعونه في مسيرته ولا يختارون غير منهجه، فانبروا جميعاً وعيونهم تفيض دموعاً قائلين:

((لِمَ نفعل هذا؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً)).

بداهم بهذا القول أخوه أبو الفضل وتابعه الفتية الطيبة من أبناء الأسرة المحمدية، والتفت الإمام الى أبناء عمه من بني عقيل فقال لهم:

((حسبكم من القتل بمسلم اذهبوا فقد أذنت لكم)).

وهبت فتية آل عقيل تتعالى أصواتهم قائلين بصوت واحد:

((وما نقول للناس؟ تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نضرب بسيف، ولا ندري ما صنعوا؟ لا والله لا نفعل،

ولكنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك))(١).

جواب أصحابه:

وانبرى مسام بن عوسجة ودموعه تنحدر على وجهه وخاطب الإمام قائلاً:

((نحن نتخلي عنك؟ وبماذا نعتذر الى الله في أداء حقك؟ أما والله لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه بيدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة حتى اموت معك)).

وتكلم سعد بن عبد الله الحنفي قائلاً: ((والله لا نخليك، حتى يعلم الله أناّ قد حفظنا غيبة رسوله فيك... أما والله لو علمت أني اقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى، يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك حتى

---

(١) تاريخ ابن الاثير: ٤:٥٨.

ألقي حمامي دونك، وكيف لا افعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا إنقضاء لها أبداً)).

وقال زهير (رضوان الله عليه): ((والله وددت أني قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت حتى أُقتل كذا ألف مرة، وإن الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من اهل بيتك....)).

وانبرى بقية أصحاب الإمام فأعلنوا الترحيب بالموت في سبيله والتفاني في الفداء من اجله.

فجزاهم الإمام خيراً[١]، وأكد لهم جميعاً أنهم سيلاقون حتفهم، فهتفوا جميعاً:

((الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرفنا بالقتل معك، أو لا نرضى أن نكون معك في درجتك يا ابن رسول الله؟)).

لقد اختبرهم الإمام فوجدهم من خيرة الرجال صدقاً ووفاءً، قد أشرقت نفوسهم بنور الإيمان،

---

(١) المنتظم: ٥:١٧٩، تاريخ الطبري: ٦:٢٣٩.

وتحرروا من جميع شواغل الحياة، وكانوا -فيما يقول المؤرخون- في ظمأ الى الشهادة ليفوزوا بنعيم الآخرة.

وقال محمد بن بشير الحضرمي وكان قد بلغه أن إبنه قد أُسر بثغر الري، فقال: ما أحب أن يؤسر إبني، وأنا أبقى بعده حيا، فاستشعر الإمام من هذه الكلمات رغبته في إنقاذ ابنه من الأسر فأذن له التخلي عنه قائلاً: أنت في حلّ فاعمل في فكاك ولدك، فقال:

((أكلتني السباع حياً أن فارقتك...))(١).

فلمّا إستوثق الحسين من إقبالهم على الموت وعزمهم على الشهادة في سبيل الله قال لهم: ((ياقوم أني غداً اقتل، وتقتلون كلكم معي، ولا يبقى منكم واحد، فقالوا: الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك، وشرّفنا بالقتل معك، أو لا نرضى أن نكون معك في درجتك

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤٥:١٣، وتهذيب التهذيب ١٥٠:١، ومقتل الحسين عليه السلام (للمقرم) ١٦٥-١٧٠.

يا ابن رسول الله؟ فقال: جزاكم الله خيراً ودعا لهم بالخير.

فقال له القاسم بن الحسنعليه السلام: وانا فيمن يقتل؟ فأشفق عليه، فقال: يا بني كيف الموت عندك؟ فقال: يا عم أحلى من العسل.

فقال: إي والله فداك عمك، انك لأحد من يقتل من الرجال معي بعد أن تبلو بلاء عظيم، وابني عبد الله (الرضيع)))(١).

مشاهد أخرى للإستماته :

ونواصل الكلام بذكر مشاهد اخرى من مشاهد الاستماته في مواقف انصار الحسينعليه السلام في كربلاء.

يقول هلال بن نافع (رضوان الله عليه) رأيت الحسينعليه السلام وحده ليلة عاشوراء خلف الخيام يتفقد التلاع خلف الخيام فخشيت عليه فتبعته فعرفني، وقال: هو يتفقد التلاع والروابي من خلف الخيام، ثم أخذ

---

(١) نفس المفهوم (للمحدث القمي): ٢٣٠.

بيدي راجعاً، وهو يقول: هي هي والله، وعد لا خلف فيه. ثم قال: الا تسلك بين هذين الجبلين وتنجو بنفسك فقلت له: ثكلتني أمي إن تركتك. وأنّ سيفي بألف وفرسي بألف. فو الله الذي منَّ بك علينا لا أفارقك، حتى يكلاّ عن فري وجري(١).

وهذه هي حالة الاستماته التي تحدثت عنها، والتي لا يطيق مواجهتها ناس يطلبون الحياة ويهربون من الموت. وكذلك كان شأن أنصار الحسين عليه السلام مع جند بني أمية فاستمعوا الى رواية الطبري.

صاح عمر بن الحجاج الزبيدي، وكان من قادة جيش ابن سعد ومن المقربين الى ابن زياد... لما رأى عجز جيش ابن زياد من مواجهة انصار الحسين عليه السلام:

(مالكم يا حمقاء. مهلاً. أتدرون من تقاتلون. إنما تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقوما مستميتين. لا يبرز أحد منكم إلاّ قتلوه على قلتهم. والله لوم لم

---

(١) المجالس الفاخرة لشرف الدين: ٢٣٢.

ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم. فقال عمر بن سعد: صدقت. الرأي ما رأيت أرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وحداناً لا توا عليكم)(١).

ويقول هلال بن نافع البجلي رحمه الله في جواب الحسين عليه السلام عندما طلب منهم الثبات والصبر في لقاء العدو (فو الله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربنا، وإنا على نّياتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك)(٢).

هذه البصائر عندما اقترنت بالتضحية خلقت منهم قوة لا تقهر.

قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك قتلت ذرية الرسول صلى الله عليه وآله قال: لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا. ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها، كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً

---

(١) تاريخ الطبري: ٤٣٥/٥.

(٢) مقتل المقرم: ٢١١. البحار: ٣٨١/٤٤.

وشمالاً، ولا ترغب في المال. ولو كففنا عنهم رويداً لأتت على نفوس المعسكر بحذافيره فما كنا فاعلين؟(١).

وقال ابن ابي الحديد قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عضضت بالجندل لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلناه. ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها كالأسود الضارية، تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغيب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية او الاستيلاء على الملك. فلو كففنا عنها رويداً لاتت على نفوس المعسكر بحذافيرها فما كنا فاعلين لاأمُ لك)(٢).

---

(١) الاربعين الحسينية: ميرزا محمد القمي ط طهران: ١٣٣.

(٢) شرح النهج: ٢٦٣/٣. نفس المهموم: ٣٠٢. مقتل المقرم: ٦٩.

هذه القوة التي لا تقهر والتي يصفها هذا الذي شهد الطف مع عمر بن سعد... يد عوالي تأملَ كثير... تأملّ هذه الجملة:

(لا يقبل الامان ولا ترغب في المال)

فأذن لا يمكن إرهابهم بالموت ولا اغراؤهم بحال من الأحوال، وإنما يتم الإرهاب بالتهديد والاخافة والقتل ويتم الإغراء بالأمان والسلطان والمال فاذا زهدوا فيها ولم يشفقوا من الموت فلا ينفذ فيهم خوف ولا أغراء.

(وتلقي انفسها على الموت)

إنها هي تطلب الموت فلا يمكن إذن إرهابهم بالموت والقتل. وكيف يمكن إرهاب فئة بالقتل، وهي تطلب الموت، وتندفع نحو الموت. هذه القوة غير العادية التي يحدثنا عنها أصحاب السير عن انصار الحسين عليه السلام لا يمكن تفسيرها بالشجاعة والفروسّية فحسب، ولا تكون عن استماته فحسب وإنما عن (شجاعة وفروسية + واستماته وتضحيه+ وبصيرة):

وهذا هو الذي يقول عنه عمر بن الحجاج الزبيدي (انما تقاتلون فرسان المصر واهل البصائر وقوما مستميتين).

خروج عابس بن ابي شبيب الشاكري (رضوان الله عليه) لقتال جيش ابن زياد، وكان عمره أكثر من تسعين سنة. كان يضرب عصابة على حاجبيه لئلا تنزل حاجباه على عينيه، وكان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله... برز الى القتال، فوقف امام الحسين عليه السلام وهو يقول: والله يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أمسى على وجه الأرض شيء أعز علي منك. ولو كنت املك غير نفسي لبذلتها بين يديك. فما عندي غير هذه النفس. اللهم اشهد إني على هداه وهدى أبيه.

ونزل فقاتل فاجحم القوم عن نزاله، فصاح بهم عمر بن سعد: أرشقوه بالنبال والحجارة. واذا به (رضوان الله عليه) يلقي درعه ومغفره، ويبقى السيف في يده فقط، ومن بين يديه تهزم الكتيبة قدرها مأتي

مقاتل، فقيل له: أجننت يا عابس (حيث القيت درعك ومغفرك) فقال حب الحسين أجنني[1].

وكان مسلم بن عوسجه (رضوان الله عليه) ناسكاً عارفا، عبداً.

قال للإمام الحسينعليه السلام حين إذن لهم ليلة العاشر بالانصراف الى سواداهم ومدائنهم:

انحن نتخلىّ عنك، ولما نعذر الى الله في أداء حقك. لا والله حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي، ما ثبت قائمة في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى اموت معك.

ولما صرع مسلم بن عوسجه الاسدي اول اصحاب الحسينعليه السلام مشى اليه الحسينعليه السلام فاذا به، رمق. فقال رحمك الله يا مسلم بن عوسجه (فمنهم من قضى نحبه

---

(١) معالم المدرستين للسيد مرتضى العسكري: ١١٦/٣. تاريخ الطبري:٣٢٨/٤ (الاعلمي بيروت) بعض الاختلاف. وكامل ابن الاثير: ٧٣/٤. والبداية والنهاية:٢٠٠/٨.

ونهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)، ودنا منه حبيب، فقال عزَّ على مصرعك يا مسلم إبشر بالجنة، فقال مسلم قولاً ضعيفاً: بشرّك الله بالخير. فقال له حبيب، لولا إني اعلم أني في أثرك لاحق بك من ساعتي هذه لا حببت أن توصيني بكل ما أهمك، حتى أحفظك في كل ذلك، بما أنت أهل له في القرابة والدين (كانا اسديين رحمهما الله). قال: بل انا اوصيك بهذا رحمك الله، وأشار بيده الى الحسين عليه السلام تموت دونه. قال افعل ورب الكعبة. فما كان بأسرع من أن مات(١).

وعابت زوجة كعب بن جابر علبه (اي على كعب) فقالت له: أعنت على قتل ابن فاطمة، وقتلت سيد القّراء برير لقد أتيت أمراً عظيما. والله لا أكُلمك من رأسي كلاماً ابدا.

فقال كعب بن جابر (لعنه الله) لها:

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣١/٤. معالم المدرستين للسيد مرتضى العسكري: ١٠٦/٣. اعيان الشيعة: ٥٥٥/٤. مقتل ابي محنف الازدي: ١٣٧. إبصار العين للسماوي: ١٠٤.

سلي تخبري عني وأنت ذميمة

غداة حسين والرماح شوراع

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم

ولا قبلهم في الناس اذ أنا يافع

أشد قراعاً بالسيوف لدى الوغا

ألاكلّ من يحمي الزمار مقارع

وقد صبروا للطعن والضرب حسرة

وقد نازلوا لو أنّ ذلك نافع

فابلغ عبيد الله إماّ لقيته

بأني مطيع للخليفة سامع

قتلت بريراً ثم جلت بِهِمَّةٍ

غداة الوغى لما دعا من يقارع(١).

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٢٩/٤. بحار الانوار: ١٦/٤٥. العوالم قسم الإمام الحسين للبحراني: ٢٥٩.

الفهرس